

القسم الأول

“الست كاميليا”

هيا بنا إلى القسم الأول من الكوميديا الفلاحية ...
قصص من "قرية الذهب" أحداث وأخبار، أغاني وأناشيد ، حب
وانتقام ، حكاية الدكتور نجيب مع الست كاميليا ، حكاية الست
كاميليا مع عشاقها الكثر ، مؤامرات ، دسائس وفضائح ، قتل
وحرائق ، أحاديث ممتعة ، نقاشات ، حكايات متنوعة يرويها
لكم بطلها عزيز ، المعروف بـ (أبو البنات) .

"مع تحيات مقهى القراء خانة"

هل تريدون حقا أن أحكي لكم حكايتنا؟ كل يوم تلحون علي أن أفعل ، وأنتم تعرفون أنني
رجل كبير السن انظروا إلي ، لقد شخت وأصبحت ذاكرتي ضعيفة ، وأصبح التكلم مرهقا
لصحتي . ولكن لا بأس إن أنتم صبرتم علي وساعدتموني ، فالعمر له أحكام، والشيوخوخة يا
أولادي تجعل الرجل بطيئاً في حركاته وكلامه وتجعل الذكريات تغيب أياما عديدة أو سنين طويلة
ثم تعود من تلقاء نفسها ولكن بكثير من الغموض والتلبك . فإن كنتم مصرين على سماع
الحكاية فأرجو منكم أن تصغوا جيداً وأن تعيدوا ترتيب الأحداث في أذهانكم لتكون الحكاية
متسلسلة في رؤوسكم بعد أن كانت مضطربة في رأسي . كان ذلك منذ ثلاثين عاماً أو أربعين ،
فأنا لا أذكر متى حدث ذلك بالضبط ، ولهذا أريد أن أقول : كان يا ما كان في قديم الزمان .
هل تفهمون؟ فالزمن لا قيمة له والأمور تحدث في كل الأوقات ، وما جرى وشاهدت في شبابي
، ما يزال يجري وأشاهد مثله في شيخوختي.

كان يا مكان في قديم الزمان ، كانت قريتنا تدعى "قرية الذهب" وكان يمر بها نهر غزير
المياه، اسمه "نهر الذهب" لماذا سميت القرية والنهر بهذا الاسم؟ لأنها كذلك يا أولادي. كنا
نعيش وسط خيرات نحتر ماذا نصنع بها لكثرتها . فالأرض معطاءة ، والسماء كريمة والنهر
رؤوف وطيب وحي. كان تعداد القرية لا يزيد عن ألفي نسمة، ينتمون إلى قبيلتين صغيرتين هما
الشايب والشبارب، ألقى الله بينهما المودة والحب، فعاش أهلها ألف عام في وئام وانسجام،
يزرعون معاً ، ويحصدون معاً ، يفرحون معاً كأنهم من عائلة واحدة . وفي أحد الأيام مات
الشيخ معتوق ، وهو شيخ القرية ومختارها. كان من أكابر الناس. لم يعرفه أحد قد كذب أو غش
أو شتم أو انتقم ، فوقع القرية في حزن عميق . صلوا عليه ثم دفنوه . بكوا عليه ورثوه ، ثم قعد
أكثر الناس وجاهة في "الغرفة" لينظروا فيما سيفعلون.

قال أبو مسعود:

- رحمة الله عليه!

فقال الشيخ أدهم إمام الجامع:

- الله هو الحي الباقي!

ثم قال الجميع:

- ماذا سنفعل الآن؟

- مات شيخ القرية ومختارها.

- كان ذكياً ومتعلماً.

- من سيحل خلافات القوم؟.

- ومن سيكتب صكوك الديون والإيجارات؟.

- ومن سيحتفظ بأختام الحكومة؟.

- ومن سيسجل الزيجات والمواليد والأعمار والأموات؟

- نريد مختاراً جديداً .

- انتقوا واحداً منكم.

- لا تقل هراء يا محسن ، فنحن لا نصلح لهذا الأمر.

- يا حيف عليك يا شيخ معتوق.

- فليقترح أحدكم اسماً معيناً.

قعد الجميع مطرقين مفكرين ، فالشيخ علي لا يعرف القراءة والكتابة ، وأبو مسعود قصير ونحيل ولا يعبىء العين ، والشيخ أدهم إمام الجامع ، عصبى المزاج ولا يحبه أحد ، أما صاحب المخزن والحلاق والإسكافي وعبدو البنّا فهم لا يليقون لهذا الأمر. "حسناً وماذا عن عبد المسيح فأرضه صغيرة ولديه الوقت ليحكم بيننا؟ قال أحدهم فأجابه الآخرون: "لن نرضى لأنه طلق امرأته الأولى".

مشكلة يا أخوان . قعدوا حتى انتصف الليل ، ونفذ الكاز من الفانوس ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى اسم يصلح لأن يكون مختاراً للقرية ، فقرروا أن يؤجلوا البحث إلى يوم الغد ، وقبل أن ينهضوا ، دخل عبدو خادم الشيخ معتوق ، تطلع في القوم برهة ثم قال بصوت باك: "قالت سيدتي إنه يجب أن ترسلوا أحداً إلى المدينة لتخبروا الدكتور بموت أبيه" فنظر الجميع بعضهم إلى بعض وقد تعجبوا من نسيانهم أمر الدكتور فشعروا بالخجل ثم اطمأنوا على مستقبل المختارية.

أرسلوني إلى المدينة . قالوا لي أذهب إلى الدكتور نجيب وأخبره بما جرى وقل له أن يأتي سريعاً. كنت قد ذهبت مرة إلى المدينة مع رشدي صاحب الهكتارين. كان يمشي في المقدمة وأنا أتبعه. ركبنا الحافلات والسيارات والباصات. مشينا في شوارع عريضة ملساء. صعدنا ، نزلنا وأنا أتبعه. هو الذي يعرف كل شيء أما أنا فقد كنت أتبعه. وحين وصلنا إلى بيت الدكتور انتظرته على باب العمارة.

مررت أولاً ببيتي لأبدل جلابيتي . أمرت زوجاتي أن يعزقن التربة ويفتحن الساقية إلى أرضنا أثناء غيابي ، ثم ركبت البغل يتبعني ولدي حمود كي يعيد الدابة بعد أن أستقل الباص المسافر إلى المدينة. وما إن انتظرنا ساعة على الطريق حتى جاء الباص فركبت وتوكلت على الله.

أنتم لا تعرفون ابني حمود ولن تعرفوه ، فقد قتل بعد ذلك ، هو وأمه فطمة وهي زوجتي الثانية. كان عمره ثلاث عشرة سنة حين شاهدته من نافذة الباص يقفز إلى ظهر البغل ليعود به إلى القرية.

وصلنا إلى المدينة بعد الظهر. أنزلونا هناك، في نفس المكان. الله يعين أهل المدينة على مدينتهم. ما أكثر البشر والسيارات والحمير. سألت سائق الباص عن الدكتور نجيب فلم يعرفه. سألت رجلاً آخر فلم يعرفه أيضاً. ما هذه المصيبة؟ المدينة كبيرة جداً ، والناس كثر فكيف سأجد العمارة التي يسكن فيها أخونا الدكتور؟. شعرت بالدوار والجوع فقعدت على الرصيف أتفرج على الناس.

كان يا ما كان في قديم الزمان ، كان نجيب قد نجح في المدرسة. قالوا لنا حين كنا نحصد الهكتار المزروع شعيراً ، إن نجيب قد عاد من المدينة ومعه جريدة كتب فيها اسمه. كان ذلك قبل أن يموت الشيخ معتوق بثمانين سنوات. سمعنا الزغاريد تصدح من كل جهات القرية فزغردت زوجتي، فلم أكن قد تزوجت الثالثة بعد . فذفنتهما بالحجارة والشتائم ثم تركت المنجل وهرعت إلى "الغرفة". كان نجيب جالساً إلى جانب أبيه بالطقم المدني وشعره مسرحاً ومدهوناً. كان الجميع سعداء، والشيخ معتوق يضحك ، وعبدو يصب القهوة والشيخ أدهم يتعلم لفظ كلمة (بكالوريا) ونجيب يبتسم وهو صامت.

ذبحوا خمسة خواريف وطبخوها ثم تتاوبنا على السمّاط، ثم تكومنا في "الغرفة" ندخن ونسعل ونبصق ونشرب الشاي. كنا ننظر إلى الأستاذ نجيب الذي أصبح نصفه بسبب هذه الشهادة.

سأل جاسم صاحب المائة رأس غنم:

- ماذا سيفعل نجيب الآن بعد أن أصبح أستاذاً؟

فقال الشيخ معتوق:

- ماذا تريدون أن يفعل ؟ .
- فقال الشيخ أدهم إمام الجامع:
- أدخله في كلية الشريعة .
- وقال آخر :
- افتحوا له مدرسة ليعلم أولادنا القراءة والكتابة ! .
- ثم قال كل واحد بدوره :
- اتركوه يدخل الجيش ليصبح ضابطاً .
- الأفضل له أن يصير شرطياً ، فنحن بحاجة إلى مخفر .
- يا شيخ معتوق ، أعطه عشرة هكتارات ليزرعها ، فهذا أفضل شيء .
- ابحثوا له عن زوجة .
- بكم ليرة هذه البدلة يا نجيب ؟
- ما اسم هذا الشيء الذي يتدلى من ياقة القميص ؟ .
- دعونا في الجد ، لماذا لا يصير تاجراً عوضاً عن ذلك اليهودي الذي يأتي من المدينة ليشترى المحاصيل؟

- والله يا نجيب لازم تصير مطهر صبيان .

ولكن نجيب لم يكن يجيب ، بل كان ينظر إلينا وهو يبتسم ولولا العيب لقلنا أنه أجذب .

في النهاية وقف الشيخ معتوق فوق ابنه ووقفنا نحن ، ثم حسم الشيخ النقاش بأن نجيب سوف يسافر إلى المدينة مرة أخرى ليدخل الجامعة ويصير دكتوراً .

لعنة الله على هذه المدينة يا شباب . لو أعطوني مال قارون لما تركت القرية وجئت إلى هذه الفوضى . حتى الآن خمسة داسوا على قدمي وأنا جالس على الرصيف ، وثلاثة رفسوني في ظهري وواحد بصق على رأسي . الله يعين الدكتور نجيب على هذه العيشة ! . ولكن رجلاً يلبس بنطالاً وقميصاً وقف ثم انحنى وهو يدخل سيارته وسألني : "عن ماذا تبحث يا عم ؟" قلت له عن مسكن الدكتور نجيب . فقال دعك منه تعال لآخذك إلى دكتور آخر أخطر منه فقلت له أنا لست مريضاً بل جئت إلى هنا لأجد الدكتور نجيب ابن الشيخ معتوق مختار "قرية الذهب" لأخبره خبراً سيئاً . شتمني الرجل ثم رحل . عاد بعد قليل وقد عاد إليه لطفه . قال لي يسألني : "هل ستعطيني خمس ليرات إن وجدته لك وأوصلتك إليه ؟" فقلت له "أي بالله" . فذهب ليعود بعد نصف ساعة حين كان المؤذن يشرع بأذان العصر .

قال اتبعني . تبعته وأنا أحمد الله . ركبنا ماكينة اسمها الترام . نزلنا منها بعد أن طلعت روعي . ثم سار بي الرجل في الطرقات العريضة والمشجرة . سألته وأنا أخرج علبة التبغ لألف لي سيارة على الماشي : "كيف عرفت مكان سكن الدكتور ؟" فأجابني دون أن يتمهل في مشيته

“الدنيا صغيرة يا شيخ” استغربت كلامه وأنا أشعل السجارة.
توقف أمام بناية من ثلاثة طوابق وقال أننا وصلنا. فعلاً إنها هي . أنا متأكد من ذلك ،
ولكن يجب أن أتأكد أكثر . مد يده مطالباً بالخمس ليرات فقلت أنني سأدفعها فوق ، أمام بيت
الدكتور .

طرقنا الباب ، أخرجت له الليرات الخمسة ونحن ننتظر. أعاد الرجل طرق الباب وهو
يشتمني، وما هي إلا لحظة حتى سمعنا قرقرة ثم انفتح.

لو تعلمون يا شباب ماذا رأيت . والله لو عثمت مائة سنة لن تروا مثل ذلك العجب. امرأة
كالحليب ، طويلة ، ذات شعر أصفر مجعد يغطي العنق حتى الكتفين وينفرج على أجمل وجه
شاهدته في حياتي كلها وحتى هذه اللحظة . بصراحة يا أولاد ، أنا انهيلت . سمعت الرجل
يسألها عن الدكتور نجيب ، فابتسمت كألف خلق الله ثم فتحت شفيتها اللتين تود أن ... آه
أستغفر الله العظيم، ثم سألت: من يريده ؟ . أجابها أن هذا الفلاح يريده ، ثم هجم علي والنقط
الخمس ليرات وهرب دون أن أرفع عيني عن ذلك الملاك الواقف بالباب .

حاولت أن تفهم مني ماذا أريد دون جدوى فقد انعقد لساني وانسد عقلي وجحظت عيناى
بينما كانت تتلاطف معي ، وتسألني بصوتها الذي يغرد كالشحرور عن حاجتي إلى الدكتور
نجيب، فقلت أخيراً دون أن يزول السحر عني ، إنني من قريته وأرغب في التكم معه .
فأدخلتني ثم أجلسني على كرسي في الدهليز وراحت تخطو أمامي مبتعدة ، بثوبها الحريري
الأحمر المسدل حتى الكاحلين والذي يجعلها أكثر روعة .

وبعد قليل جاء الدكتور نجيب فسلم علي وأدخلني إلى غرفة فيها ستائر ومقاعد فجلسنا
وراح يسألني عن القرية وأحوالها وهو يحشو قصبته بالتبغ ويمتص الدخان من طرفها ثم صاح
للمرأة: “اعلمي لنا الشاي يا كاميليا” . راح يسألني ما بي ، فلم أقل له أن المرأة قد سطلتني
وأخذت عقلي، فقال إن وجهي أحمر وعيني حمراوان ، فقلت له بسبب السفر ، ثم رحلت أبحث
في أصابعه عن خاتم الزواج فلم أجد شيئاً فتأكدت أن المرأة ليست زوجته . فمن تكون إذن ؟ .

سألني عن والده الشيخ معنوق ووالدته فقلت له زين ثم سألني عن سبب مجيئي فلم أعرف
كيف أجيبه لأنني كنت أفكر أنني على استعداد لتقديم الهكتارين اللذين أملكهما ثمناً لليلة واحدة ،
ولكنه أصر على معرفة السبب ولماذا لم يأت رشدي صاحب الهكتارين هذه المرة بل جئت أنا ؟ .
فقلت له وأنا أرتجف لأن كاميليا الجميلة دخلت وهي تحمل صينية الشاي، بأن رشدي صاحب
الهكتارين قد هرب من القرية نكاية بزوجته طويلة اللسان ، وأنني جئت لأن أهل "الغرفة" طلبوا
مني ذلك لأخبرك بأن ... الشيخ معنوق قد مات .

سمعت صرخة عظيمة أطلقها الدكتور ثم صوت سقوط صينية على الأرض وتحطم
كؤوس من البللور .
